د/ مصطفى الفقى
الكاتب والمفكر السياسى، مساعد أول وزير الخارجية الأسبق

الاستقطاب السياسى
فى الشرق الأوسط

مقدمة :

عرفت منطقة الشرق الأوسط منذ أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها مخاضًا سياسيًّا من نوع مختلف، حيث تحركت الجيوش العربية فى سلسلة انقلابات عسكرية وامتدت حركة التحرر الوطنى لتشمل دولًا وإمارات فى المنطقة العربية، وبدأ الاستعمار القديم بشكله التقليدى المتمثل فى قوات عسكرية بريطانية أو فرنسية أو حتى إيطالية يحمل عصاه على كاهله، ويبدأ فى الرحيل بفعل تطورات ذلك العصر، ولعل ذلك اتضح فى المفهوم الوافد لنظرية الفراغ فى الشرق الأوسط وفق مبدأ أيزنهاور نسبة للرئيس الأمريكى الراحل، عندئذ جرى استقطاب لا مبرر له - فى تقديرى- بين الدول القريبة من الاتحاد السوفيتى حينذاك والدول التى تربطها علاقات وثيقة بالولايات المتحدة فى جانب آخر، عندئذٍ بدأ الاستقطاب الدولى يفرض نفسه على المنطقة العربية فى إطار الشرق الأوسط الكبير.

فى ظل أجواء الحرب الباردة ، تدفقت مع مر السنين أمواج كثيرة، وبدأ يتعاظم الصراع العربى الإسرائيلى فى هذه الأثناء ويدخل مرحلة جديدة كانت أبرز محطاتها حربى ١٩٥٦م و ١٩٦٧م وصولاً إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣م، وظهر الشرق الأوسط وكأنه بؤرة الصراع المحتدم فى هذه المنطقة من العالم، حتى تفتحت رؤية بعض دول العالم للدخول من بعض بوابات الدول العربية فظهرت الفتن والاضطرابات فى كل دولة تقريبًا، ورغم أن بريطانيا وفرنسا كانتا تلملمان أوراق الاستعمار القديم للرحيل عن المنطقة فإن الدولة العبرية استطاعت أن تبقى فى الاستقطاب الأمريكى بحيث تحولت واشنطن لكى تكون الراعى الأصلى لدولة إسرائيل بعد بريطانيا وفرنسا، وقد أسهمت حرب ١٩٦٧م فى تعزيز وتنمية موقف إسرائيل وتقوية مكانتها عالميًّا وإقليميًّا، وشهدت السنوات التالية لتلك النكسة فترة صعبة على العالم العربى خصوصًا على الدول التى احتُلت أراضيها وهى مصر وسوريا والأردن ولبنان أيضًا، وظهرت مرحلة حرب الاستنزاف التى أبلى فيها الجانب المصرى بلاءً حسنًا للخروج من عباءة النكسة بحيث أدَّى التضامن العربى غير المسبوق بقيادة الرئيس المصرى الراحل أنور السادات، وبدعم من العاهل السعودى الراحل الملك فيصل إلى تحقيق نصر أكتوبر، فعبرت القوات المصرية قناة السويس واجتازت خط بارليف الإسرائيلى وأصبحنا أمام مشهد جديد دعا إلى بروز دور **داهية الدبلوماسية الأمريكية هنرى كيسنجر الذى قال للرئيس الراحل السادات ذات مرة: (إن المهزوم لا يملى**

شروطه.. وإن عليك أن تقوم بحرب تحريك على الأقل لكى تبدو لكلماتك وقعها الطبيعى على الأطراف الأخرى)، وقد كان نصر أكتوبر هو النتيجة الطبيعية لهذا الشعور الذى تقمص العقل العربى ودفعه دفعًا نحو التعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى السابق بشكل مختلف، فقد طرد الرئيس السادات الخبراءالسوفيت من مصر معلنًا أن ٩٩٪ من كروت حل الصراع العربى الإسرائيلى أصبحت فى يد الولايات المتحدة الأمريكية وبذلك تراجع الاستقطاب الدولى بين أنصار الاتحاد السوفيتى وبين أصحاب العلاقات القوية تقليديًّا بالولايات المتحدة الأمريكية، ووجدنا أنفسنا أمام مشهد مختلف رجحت فيه كفة الغرب على الشرق.

فى هذا الإطار من السياقات التاريخية وتراجع المشروع القومى بشكل ملحوظ وتقدم المشروع الإسلامى الذى رعاه السادات فى البداية دون أن يعى نتائجه الخطيرة؛ حيث تجذَّرت قوة جماعة الإخوان المسلمين الإرهابية، وسيطرت إلى حد كبير على الشارع فى عدد من الدول العربية خصوصًا الدولة التى ولدت فيها الجماعة، وهى مصر، وكان يمكن تقبل الأمور على هذا النحو إلى أن حدث أمر جلل بقيام الثورة الإسلامية فى إيران وطرد الشاه وعودة الخمينى إلى طهران حيث جرى استقباله، **وقيل إنه ذكر لبعض مرافقيه فى الطائرة التى أقلته من فرنسا إلى مطار ماهرآباد أن العرب قد حكموا الأمة الإسلامية لعدة قرون كما حكمها الأتراك العثمانيون لعدة قرون أخرى وقد جاء الأوان لكى يقود الفرس الأمة الإسلامية حاليًا**، كما ردد أحد معاونيه من وزراء إيران منذ أعوام قليلة عندما سقطت صنعاء فى أيدى الحوثيين حيث غرد ذلك المسئول الإيرانى أن العاصمة العربية الرابعة قد آلت إليهم بعد دمشق وبيروت وبغداد، وهنا أصبحنا أمام مشهد جديد للاستقطاب الدولى فى المنطقة إذ إن ظهور إيران وطموحاتها السياسية بل وأطماعها الجغرافية جعلتها تسعى لالتهام ما تقدر عليه من دول الجوار العربى والإسلامى بل **واستعانت بعدد من الوكلاء الذين يقودون ميليشيات أو فيما تعرف بالفواعل من غير الدول للتأثير على سياسات المنطقة وأمن الدول فيها وفى مقدمتها حزب الله فى لبنان** الذى اختزل الإرادة اللبنانية فى دوره بالجنوب وهو الذى خاض حرب ٢٠٠٦م ضد إسرائيل وتمكن من إيجاد الجزء المعطل فى سياسات الدولة اللبنانية، حتى وصل الأمر بذلك البلد العربى أن يظل بلا رئيس جمهورية لعدة سنوات خضوعًا لسطوة الحزب الذى يُعَد مؤسسة إيرانية على أرض عربية، ومهما يقال من تبريرات فى هذا الشأن فإن حالة الاستقطاب التى نشير إليها تبدو الآن أكثر وضوحًا من أى وقت مضى، **فالشرق الأوسط اليوم منقسم بين حلفاء إيران فى جانب والمعترضين على سياساتها فى الجانب الآخر**، وكذلك الأمر بالنسبة للترك الذين يحوزون مواقع جديدة كل يوم، بالإضافة إلى أن تركيا دولة عضو فى حلف الأطلنطى وهى دولة أوروبية آسيوية ذات وضع خاص.

ولعلنا نشير هنا إلى أنه منذ اندلاع الثورة الإسلامية فى إيران عام ١٩٧٩م والمنطقة كلها لم تهدأ وكأنما يقف الجميع على صفيح ساخن، فقد تبنَّى النظام الإيرانى الجديد بقيادة الملالى ما أطلقوا عليه (الدور القيادى للثورة الإسلامية الإيرانية) فى المنطقة وبدأت طهران تلعب دورًا متميزًا فى غرب آسيا والمشرق العربى، وتضخم دورها بفضل النهج الدعائى الذى مارسته قيادات تلك الثورة فى شتى المواقع، وأصبح لها وكلاء كبار يتقدمهم حزب الله فى الجنوب اللبنانى وميليشيات أنصار الإسلام بقيادة جماعة الحوثى الذى تمكن من أن يكون له موضع قدم على الساحة الإقليمية إلى جانب بؤر متزايدة على الأراضى العراقية والسورية، **وبذلك تعددت الساحات الإيرانية على امتداد الخريطة العربية والإسلامية وظلت القضية الفلسطينية هى المستهدفة من قبل أطراف عربية وإقليمية**، وظلت عمليات الصدام فى المنطقة محكومة بمعادلات ثابتة فى التقدم والتراجع مع حرب إعلامية طاحنة وادعاءات بين الطرفين بأن كلاً منهما يعمل من أجل الاستقرار والسلام بينما كل الشواهد تؤكد أن القضية الفلسطينية تتوارى وأن شعارات مرحلية هى التى تقود التيار فى الشرق الأوسط، ولقد توهمت إيران عند نقطة معينة أنها الدولة المتحدثة رسميًا باسم الشرق الأوسط وشعوبه وأنها صوت الإسلام ومبعوث السماء لاستعادة أمجاد السلف الصالح وإقامة دولة إسلامية كبرى ينضوى تحت لوائها كل التنظيمات والفصائل الإسلامية عسكرية أو مدنية، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تجاوزه **لكى تصبح إسرائيل هى المستهدف الرئيسى لكل المعادين للإسلام والرافضين للأمة العربية الواحدة التى تكون فى وضع أفضل بكثير مما هى عليه الآن**، وإذا بحثنا فيما جرى منذ بداية الغزو الإيرانى لسماوات المنطقة بالمسيرات والصواريخ فإننا نخرج بعدد من النتائج التى يكاد يجمع عليها كل المتابعين للأحداث عن

كثب والذين يدركون أن معظم النار من مستصغر الشرر، ولعلى أرصد تلك النتائج عن ذلك العمل الإيرانى الرمزى فى النقاط التالية:

أولًا: إن إيران قد ألقت دون أن تدرى بطوق النجاة لبنيامين نيتانياهو وأعطته بحق قبلة الحياة، فبينما كان يسعى إلى البقاء أطول مدة ممكنة فى السلطة وتحت الأضواء فإذا الذى جرى يعطيه المبرر لمواصلة سياساته العدوانية بل يسمح له بمزيد من الغطرسة فى مواجهة الفلسطينيين والمضى نحو المزيد من قهر إرادتهم وتجويعهم .

ثانيًا: لقد أثبتت إيران أن الملف الإيرانى هو الذى يحكم دورها وليست القضية الفلسطينية بدليل أنها تحركت فى تلك المغامرة التى جرى التنسيق لها والاستئذان فيها من الولايات المتحدة، ولم يحدث ذلك إلا عندما اعتدت إسرائيل بغارة جوية قاتلة على مقر القنصلية الإيرانية بسوريا، والملاحظ هنا أن طهران لم تتحرك قبل ذلك بدافع التخفيف من العبء العدوانى الذى يمارسه جيش الاحتلال ضد الفلسطينيين، ولكن التحرك تم فقط عندما جرى المساس بأرض إيرانية تتمثل فى المجمع الدبلوماسى الإيرانى الذى جرى ضربه قبل ذلك بأيام فكانت المواجهة المباشرة بين إيران وإسرائيل.

ثالثًا: إن إيران قد عكفت دائمًا على ردود الفعل مع إسرائيل من خلال وكلائها فى الساحات البديلة سواء حزب الله من لبنان أو الحوثيون من اليمن أو بعض الميليشيات الموالية فى سوريا والعراق، بينما لم نشهد لها رغبة حقيقية فى الدخول إلى أرض المعركة إلا بعد أن جرى المساس وبإصرار عسكرى على المواقع الإيرانية المباشرة، ولذلك فإننا نلفت النظر إلى أن ما جرى هو تطور ضخم فى معادلة الصراع بين إيران وإسرائيل؛ فقد حاولت طهران ولو ظاهريًا أن تضرب فى العمق الإسرائيلى مباشرةً وأحسب أن هذه أول مرة يتعرض فيها العمق الإسرائيلى لهجمة عسكرية مباشرة حتى وإن لم يتحقق لها النجاح الكامل.

وخلاصة القول فى هذه النقطة هو أن الصدام الإيرانى الإسرائيلى هذه المرة غير مسبوق ويعطى قراءة جديدة لمستقبل المواجهات فى المنطقة من خلال الحرب النظامية بين الجيوش فى الدولتين دون الوكلاء أو الفواعل من غير الدول التى كانت تعتمد عليها إيران من قبل.

رابعًا: لابد أن نعترف بأسف وحزن أن ما فعلته إيران مهما كانت مبرراتها قد قلب موازين القوى وسحب الأضواء التى كانت مركزة على مأساة الشعب الفلسطينى والكارثة التى يتعرض لها والنكبة الجديدة التى تلوح فى الأفق حتى أصبحت أخبار العملية العسكرية الإيرانية ضد إسرائيل هى الخبر الأول الذى التفَّت وراءه أخبار التطورات الحزينة والاستعدادات المقلقة لاحتمال اجتياح إسرائيل مدينة رفح وما يمكن أن يؤدى إليه ذلك من انهيار قواعد اللعبة المتفق عليها، والمؤسف أن ذلك يتم فى وقت حظيت فيه القضية الفلسطينية بتعاطف شديد من الشارع العادى فى دول العالم المختلفة، ولكن ما فعلته إيران سوف يؤدى إلى تراجع ذلك التأييد بل وإلى عودة السياسات الأوروبية إلى سابق عهدها من دعم مطلق لإسرائيل وتعاطف معها بسبب ذلك العمل العسكرى الذى حدث.

خامسًا: ليس من شك فى أن فيما أقدمت عليه إيران دون تنسيق مع الجانب العربى والفلسطينى إنما يشير بوضوح إلى أن الأجندة الإيرانية مستقلة بذاتها وأنها تمضى وفقًا لمفهوم فارسى بحت تبدو فيه القضية الفلسطينية إحدى آليات المواجهة ولكنها ليست بالضرورة العامل الوحيد فى إحداث ذلك الصراع الذى امتد طويلاً ولا يبدو أنه سوف يصل إلى تسوية قريبة، ألم نتفق فى البداية على أن القضية الفلسطينية هى (قميص عثمان) يرتديه كل من أراد أن يخفى سياساته الذاتية وراء شعارات فلسطينية، وليس من شك أيضًا فى أن ما جرى قد وضع بعض الدول العربية وفى مقدمتها الأردن وربما مصر ولبنان أيضًا فى موقف صعب ومأزق حقيقى فأصبحت ردودهم موزعة بين تطورات الوضع بالنسبة للأشقاء فى غزة وعموم الأراضى الفلسطينية وبين الحرب الإقليمية الشاملة التى يحتمل وقوعها فى الشرق الأوسط فى ظل الظروف التى استجدت والمغامرات غير المحسوبة التى طرأت.

سادسًا: لقد نجمت عن تلك الأحداث الأخيرة احتمالات غير مستبعدة تبدأ من إمكانية نجاح الغرب فى إعلان الحرس الثورى الإيرانى منظمة إرهابية، خصوصًا أن إدانة إيران حاليًا أصبحت أمرًا شائعًا وهى التى وضعت نفسها فى هذا المأزق وسمحت لأبواق الدعاية الدولية أن تفتح عليها النار بشكل غير مسبوق، **بل وأضيف إلى ذلك أن من النتائج المحتملة أيضًا تعثر المفاوضات الخاصة بين طهران والغرب**

حول البرنامج النووى الإيرانى الذى لم تعد له الأهمية نفسها بعد الأحداث الأخيرة.

إن القـراءة المتأنية للمشهد الراهن فـى الشرق الأوسط تشيـر بوضوح إلـى عملية السيولة فى المواقـف المتبادلة فى المنطقـة والتى توحى بأن الرواية لـم تتم فصولها بعد بل قد تكون فى بداياتها.

وأخيـرا، فـإن مرحلـة جديـدة للصـراع فـى الشرق الأوسط قد بدأت بالانتقال مـن مبارزة الطرفين عن طريق الـوكلاء وتعـدد الساحـات والتـى قـد تنتهى بالدخـول فى مرحلة المواجهة المباشرة والإقلال من أدوار بعض الوكلاء نتيجـة ماجرى، والمؤكد أن الخاسـر الأكبر هو ذلك الشعب الفلسطينى الـذى يدفع بدماء أطفاله ونسائه وشيوخه أغلى فاتورة فى تاريخنا المعاصر.

واليـوم يقف العـرب على الجانب الآخـر يتابعون العدوان الدامى علـى الشعـب الفلسطينى ويبذلون الجهـد الإعلامى والسياسى للخروج من ذلك المأزق، ولكن حالات الاستقطاب التـى فرضت نفسهـا على المنطقة العربيـة تحول دون ذلك، ولنا فى النهاية أن نذكر ملاحظتين:

أولاً: إن حالـة السيولة فى العلاقات الإقليمية والدولية توحى بـأن كل شىء معقـد وأن الأمور لم تستقـر بعد ولكن الأمر يختلف إذا أدركنا أن سياسيات هذه المنطقة التى تقع فى قلب العالم تبدو وكأنها تطفو فوق سطح الرمال الساخنة كمـا أن الروايـة لم تتـم فصولاً، فمـا زلنا فـى حالة ترقب يصعب معها قـراءة المستقبل أو حل ألغاز ما هو قادم فيه، فالتنبؤ السياسى أمر محفوف بالمخاطر فى ظل المتغيرات السريعـة التـى أفرزهـا الصـراع العربـى الإسرائيلى منذ السابع من أكتوبر ٢٠٢٣م.

ثانيًا: إن الشعور الشرق أوسطى يتأرجح بين موجات من التفاؤل وأخـرى من التشاؤم سببها عـدم وضوح الرؤية رغم أن الشارع فى معظـم دول العالم يموج بانفعالات قوية داعمة للشعب الفلسطينى ومتعاطفة مع معاناة أهل غزة، علاوة على تحـولات رسميـة فى مواقف عـدد آخر من الـدول التى بدأت تدرك أن الصراع العربى الإسرائيلى سوف يظل قنبلة موقوتة ما لم نتمكن من نزع الفتيل بإعطاء الفلسطينيين حقوقهم فى دولـة مستقلة وهو الحد الأدنى الـذى يطالبون به حتى يصبح للفلسطينى شأن وكيان يسمحان له بالحوار مع الدولة العبرية والتعايش معها، لأن القضية معقدة وشديدة الحساسية وفيها أبعـاد تاريخية ودينيـة ورواسب إنسانية تحتـاج كلها إلى قدر كبيـر مـن الفهم والوعـى المشترك الـذى يجعله قـادرًا على إدراك أننا فى قارب واحد.

الخلاصـة:

إن حالة الاستقطاب التى نشهدها اليوم بين معسكرين إيرانى وآخر إسرائيلى يستلزم من العرب يقظة أشد وفهمًـا أعمق لطبيعة العلاقات الدولية فى إطارها الإقليمى وانعكاساتها على المنطقة كلها، فالمنطقة العربية مقبلـة علـى تغيرات هائلة لا فى هياكل النظم ولكن فى جوهر السياسات، كما أن العلاقات بين إسرائيل والدول العربية تدخل مرحلة جديدة تساعد فى الدفع فيها احتمالات وجود سياسة إسرائيلية مرنة لا تصبح رهينة لليمين الإسرائيلى المتطرف دون سواه.

الاستقطاب السياسى فى الشرق الأوسط

■ د/ مصطفى الفقى
الكاتب والمفكر السياسى، مساعد أول وزير الخارجية الأسبق

المستخلص :

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حدثت تغيرات كثيرة فى منطقة الشرق الاوسط، وأهمها حركات التحرر الوطنى التى شملت دولاً كثيرة، وبدأ الاستعمار فى شكله القديم المتمثل فى قوات عسكرية يرحل عن المنطقة، وبدأ الاستقطاب الدولى يفرض نفسه على المنطقة العربية فى إطار مفهوم الشرق الأوسط الكبير، وذلك يستلزم من العرب يقظة أشد وفهمًا أعمق لطبيعة العلاقات الدولية فى إطارها الإقليمى وانعكاساتها على المنطقة، فى ظل التغيرات الكبيرة فى هياكل النظم وفى جوهر السياسات.

الكلمات المفتاحية : الاستقطاب السياسى، الشرق الاوسط.

Political Polarization in the Middle East

■ *Dr\ Mustafa El-Feki*
Writer and Political Thinker, Former First Assistant to the Minister of Foreign Affairs

Abstract:

After the end of World War II, many changes occurred in the Middle East region, the most important of which were the national liberation movements that included many countries. Colonialism in its old form represented by military forces began to leave the region, and international polarization began to impose itself on the Arab region within the framework of the concept of the Greater Middle East. This requires Arabs to be more vigilant and have a deeper understanding of the nature of international relations within their regional framework and their repercussions on the region, in light of the major changes in the structures of systems and in the essence of policies.

Keywords: Political polarization, Middle East